

مصدرية المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية

د. عادل حسن عبد الرحمن العقاب⁽¹⁾

مقدمة الدراسة:

إن التغيرات الكبرى التي حدثت في عالم العلم والمعرفة والتقنية تُملِي على الدارسين والباحثين بإحياء عقولهم حتى تدير وتختبر هذه المعرفة البشرية لتنمو، فليس في المعرفة قديم وجديد وإنما فيها حيٌّ يُنير العقول وميتٌ يقتالها. فالمعرفة تموت إذا لم تكن هنالك نسق علمي ينظمها ونظرية معرفية تحتضنها. وإذا أدرك عقل الباحث وظيفته المنهجية استطاع أن يميز بين الحقائق القائمة منطقة الحشد والتراكم وبين الحقائق المبنية على منطق التحليل والتراكيب والتجريد. وحقيقة أن العقل المنهجي اهتم بالبحث في نظرية المعرفة فهي مطلب لا غنى عنه في أي حركة ثقافية وعمل فكري. ولعل نظرية المعرفة من حيث رؤيتها الفلسفية لطبيعة هذه المعرفة ومصادرها وطرائقها خاصة عندما تصدت المذاهب الدينية والتيارات الفلسفية واحتدم بينهما النزاع، وكان طبيعياً أن تختلف بدرجات متفاوتة تجاه هذه الحقيقة فكل المذاهب الفلسفية لا يملكون إلا أن يصوغوا آراءهم على الغالب في شكل اقتراحات قد تصدر عن تأملات، أو تحليل، أو الحدس أو الحس أو التخيل أو غير ذلك. فأخفقت هذه الفلسفات أن تتقدم وهي تسير في طريق مسدود لم تقدّم تفسيراً مقنعاً متكاملماً لما يدور في مصدرية المعرفة. ولذلك هنالك حاجة إلى نظرية متكاملة قادرة على توجيه العقل وهدايته للتطوير وقيادة الفكر في ميادين

(1) الأسناذ المشارك بقسم السياسات التعليمية بكلية التربية بجامعة أم القرى

عمله المختلفة حتى يسمو إلى أسمى الغايات، وأنقى التطلعات على أسس حسن صحة التصور وسلامة المنهج. وهذه الدراسة تتناول مصدرية المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية، فهي ليست معنيّة بالدراسات المقارنة بين النظريات والتصورات المعرفية ولا بعمليات النقد المتبادل بين هذه التصورات والمذاهب الفلسفية وإنما تهدف إلى تحديد معالم مصدرية المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية.

Abstract

This study aimed to identify the source of knowledge in the Islamic conception and the philosophical and positivist doctrines through two doctrines: the rational philosophical doctrine and the experimental sensory philosophical doctrine, given their importance and presence in the cognitive reality and their great influence on philosophical thought. A descriptive analytical approach used to achieve the objectives of the study. This study reached several results, the most important of which is that the Islamic perception of the source of knowledge is the revelation of the Holy Qur'an, the written book of God, and the universe, the created signs of God, the signs of the horizons and souls, and it is the scattered book of God. It has lost its value, and that the source of knowledge for the sensory experimental doctrine is the sensory experience. They also denied the existence of any knowledge prior to experience and denied the

innate mental principles. For the Islamic rooting of the sources of knowledge and how to apply them in contemporary reality, and to contact those in charge of educational curricula and urge them on what distinguishes the Islamic perception from other philosophical doctrines with regard to the theory of knowledge and its sources

مشكلة الدراسة:

مصادر المعرفة تمثل الأساس الذي يقوم عليه الفكر البشري عموماً ، في مختلف ميادين المعرفة التي تطرقها، ولذلك نجد أن كثيراً ما ردّ العلماء والمحققون من المسلمين قديماً الخلاف بين الطوائف المنتسبة للإسلام في المسائل المختلف فيها إلى الأصول المعتمدة في الوصول إلى المعرفة وقيمة هذه المعرفة الصادرة منها، بل إن كثير من الجدليات الموجودة في المجال العقدي والمجال الفكري والثقافي يُعدُّ في جذوره الحقيقية إلى جذريات عاصفة في نظرية المعرفة ومصادرها لذلك اهتم الدارس بالرجوع إلى هذه الجذور في مصادر نظرية المعرفة وأوصت دراسة (السهلي) ⁽²⁾ ، ودراسة (الترتوري) ، ⁽³⁾ ودراسة (الزنيدي) ⁽⁴⁾ ، ودراسة

(2) السهلي، ناصر أحمد علي. (2017). نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي والمذاهب الوضعية، (رسالة ماجستير) جامعة أم القرى، بمكة المكرمة، ص 213

(3) الترتوري، محمد عوض، (2007) نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي وانعكاساتها على الواقع التربوي المعاصر، (رسالة دكتوراه) جامعة أم القرى، ص200

(4) الزنيدي، عبد الرحمن (1412هـ). مصادر المعرفة في الفكر

(الكردي) (5) أوصوا بدراسة نظرية المعرفة ومصدرها وإبراز التصور الإسلامي لهذه النظرية، برغم أن المكانة التي أولاها الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً ، في دراسة نظرية المعرفة ، ومصدرها ، وإبراز التصور الإسلامي ، والقيمة الكبرى التي أعطاها لهذه إلا أننا نلاحظ تغيّباً مقصوداً ، أو غير مقصود في الساحة الفكرية والمناهج التعليمية، ولذلك يسعى الدارس إلى إبراز هذه الرؤية عبر الإجابة على السؤال الرئيس: ما الإطار الفكري لمصدرية المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية؟ ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية:

(1) ما التصور الفكري لمصادر المعرفة في التصور الإسلامي؟

(2) ما الإطار الفكري لمصادر المعرفة في المذهب الفلسفي العقلاني؟

(3) ما الإطار الفكري لمصادر المعرفة في المذهب الفلسفي التجريبي؟

أهداف الدراسة:

الهدف الرئيس: التعرف على مصادر المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية.

(1) بيان التصور الفكري لمصادر المعرفة في التصور الإسلامي.

(2) توضيح مصادر المعرفة في المذهب العقلاني.

(3) ما الإطار الفكري لمصادر المعرفة في المذهب الفلسفي التجريبي؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة:

(1) مصادر المعرفة تمثل الأساس الذي يقوم عليه الفكر البشري عموماً، لذلك فهي في حاجة إلى بيان وتوضيح وإبراز التصور الإسلامي لهذه النظرية.

الديني والفلسفي، مكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، الرياض، ص 209 (5) الكردي، راجع عبد الحميد. (1413هـ). نظرية المعرفة بين القرآن الكريم والفلسفة، ط1، مكتبة المؤيد، الرياض، ص215

(2) إظهار الجهود الإسلامية والمذهبية الفلسفية الوضعية حول مصادر المعرفة.

(3) قوة طرح التصور الإسلامي لمصادر المعرفة ف مقابل الطرح المذهبي الفلسفي الوضعي في مرجعية جذور الخلاف عند العلماء والفلاسفة حول تحرير مصطلح المصدر.

منهج الدراسة:

اتبع الدارس المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع البيانات، وتحليلها حول موضوع مصادر المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية بهدف استنتاج ما يتصل بمشكلة الدراسة من أدلة وبراهين تبرهن على إجابة أسئلة الدراسة.

حدود الدراسة:

اقتصرت الدراسة على مصادر المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية من خلال مذهبين هما المذهب العقلاني والمذهب الحسي التجريبي نظراً لأهميتهما وحضورهما في الواقع المعرفي وتأثيرهما الكبير في الفكر الفلسفي.

مصطلحات الدراسة:

المصدر: هو الحاوية لحقيقة الأشياء، أو ماهيتها، أو مثالها، أو هو الأشياء عينها إلى مصدر هو الموضوع المدرك.

المعرفة: هي إدراك الشيء على ما هو عليه وهي إدراك ناقص بالنسبة للعلم؛ لأنها مرتبطة بالمحسوسات والمعاني الجزئية، فهي تصدر (حتى لكل ما هو موجود في الواقع).

المذاهب الفلسفية الوضعية: مجموعة من الآراء الفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة مستقلة وأن مصدرها الإنسان وحده منفصلاً عن خالقه سبحانه وتعالى وهما المذهب العقلي والمذهب الحسي التجريبي.

الدراسات السابقة:

1 - الزبيدي، عبد الرحيم: بحث بعنوان: "مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي"، دراسة نقدية

في ضوء الإسلام، يستخدم المنهج المقارن وتوصلت الدراسة إلى نتائج أهمها أن الفكر الديني قد حقق أهدافه المادية والروحية **ونجحت**، بيد أن المجال الفلسفي لم يحقق ذلك، نتيجة ابتعاده عن هدي الله. (6)

2 - الترتوري، عوض: بحث بعنوان: "نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي وانعكاساتها على الواقع التربوي العربي المعاصر"، تهدف إلى الحديث عن نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي وانعكاساتها على الواقع التربوي المعاصر، مستخدماً المنهج الوصفي التحليلي وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها، أن نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي تتمحور في ثلاث اتجاهات، الاتجاه البياني، والاتجاه **العرفان**، والاتجاه البرهاني. وأن واقع التربية المعاصرة قد طرأ عليه بعض التحسينات في بعض المؤشرات الكمية ولم يطرأ عليه أي تحسين في بعضها الآخر. (7)

3 - جمعة، خالد: بحث بعنوان: "نظرية المعرفة عن ابن رشد هدفت إلى إبراز نظرية المعرفة عند الفيلسوف ابن رشد"، (8) وجاءت الدراسة بعدة نتائج من أهمها أن المعرفة عن ابن رشد تبدأ بالإدراك الحسي، فالمعرفة تتأسس بداية على إدراك الأشياء بالحواس باعتبارها أول مراتب المعرفة ثم ترتقي من صور الموجودات الحسية إلى وجود هذه الصور في الخيال على نحو أرقى من وجودها في الحس، ثم ترتفع إلى وجودها في العقل وجودها في العقل وجوداً أشرف من وجودها في الحس والخيال فالمعرفة عنده نتاج العقل.

(6) الزبيدي، عبد الرحيم (1408هـ) بحث بعنوان: "مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي"، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، مرجع سابق

(7) الترتوري، عوض (2007) بحث بعنوان: "نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي وانعكاساتها على الواقع التربوي العربي المعاصر"، مرجع سابق

(8) جمعة، خالد (2015) بحث بعنوان: "نظرية المعرفة عن ابن رشد، دكتوراه، 2015.

4 - السهلي، ناصر أحمد علي: بحث بعنوان: " نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي والمذاهب الوضعية"، هدفت الدراسة إلى التعرف على الإطار الفكري لنظرية المعرفة في الفكر الإسلامي والمذاهب الوضعية وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينما استخدم الباحث المنهج المقارن وتوصل إلى العديد من النتائج من أهمها تميز نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي وشمول نظرتها المعرفية لعالمي الغيب والشهادة وتنوع مصادرها المعرفية بما يناسب تلك الميادين. (9)

التعليق على الدراسات السابقة:
بعد الاستقراء لما سبق من الدراسات وجدت أنها تتفق مع دراسة (الزبيدي) حول مصدر المعرفة، وتختلف مع باقي الدراسات التي تناولت نظرية المعرفة بشكل عام - كما أن هذه الدراسة تناولت بشكل مفصل مصدر المعرفة في التصور الإسلامي وإشكالية تحرير مصطلح (مصدر)، كما تناولت مذهبين لهما حضورهما الملموس والمؤثر في الواقع المعاصر.

المبحث الأول: مصادر المعرفة في التصور الإسلامي
إذا تتبعنا طرح مصطلح مصادر المعرفة "في كثير من البحوث، نجد اختلافاً، بل اضطراباً في استعماله اللغوي، وتداخلاً في مفاهيم أخرى مما يوقع في إشكالات فكرية للمدقق، وتصورات خاطئة للمطالع فتكسب تلك البحوث صيغة أدبية قصصية أكثر من كونها بحوثاً علمية "نظراً لعدم تحديد بعض الباحثين مصطلحات دراستهم"، فقد وقع بعضهم فيما يعد خلطاً أدى إلى التباس بين المصادر والميادين مثلاً، ومنهم من يميل إلى الإجمال فيجعل الله تعالى مصدراً للمعرفة، والوحي أداة. (10) وإذا شئنا المضي في معرفة الأمر لدى بعض الذين تناولوه فسنجد ما

(9) السهلي، ناصر أحمد علي (2017)، بحث بعنوان: " نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي والمذاهب الوضعية " مرجع سابق

(10) الدغشي، أحمد محمد حسين. (2002م). نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية. دار الفكر، دمشق. ص 197

يلي:

المطلب الأول: - إشكالية المصطلح**أولاً: تصور بعض الباحثين للمصطلح:**

يشير أحد الباحثين قائلاً: " تستعمل الفلسفة (مصادر المعرفة) وتُعنى بها طرق المعرفة أو مساعيها ، ولكن مصطلح مصادر المعرفة في المفهوم الفلسفي ليس هو المراد بطرقها عندنا في تصورنا الدقيق ذلك أن مصدر الشيء أصله، وأصل المعرفة عندنا رباني: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) (العلق:5) وحتى استعمالنا لأدوات المعرفة ووسائلها من عقل وحس، إنما هو بأقدار الله عز وجل، وتمكينه لهذا الوسائل أن تؤدي دورها المعرفي، بينما لم تضع علاقة الإنسان بخالقه في المفهوم الفلسفي، ومن ثم فطرق المعرفة عندهم مصادرهم ومنابعها معاً".⁽¹¹⁾⁰.

والحق في ذلك ليس استعمالاً فلسفياً حرفياً، فهذا هو ذا الإمام أبو حامد الغزالي (ت: 505هـ) الذي كشف تهافت الفلاسفة الإلهيين " الميتافيزيقيين" مما لم يسبق له نظير ولا أظن أحداً بقوة سيقترب من مثل تمكنه من مباحث الفلسفة كما يشهد ذلك كتابه " تهافت الفلاسفة" و "المنقذ من الضلال" ومع ذلك نجده يُعد العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه فيقول: " العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤى من العين".⁽¹²⁾

وعلى هذا درج بعض الباحثين في استخدامهم للمصادر في سياق الحديث عن الطرائق والعكس، كما نلاحظ ذلك عند أحدهم حين عرض لمنهج (ابن تيمية) في النظام المعرفي، فوصفه بالتكامل " بين مصادر

(11) الكردي، راجع عبد الحميد. (1413هـ). نظرية المعرفة بين

القرآن الكريم والفلسفة، ط1، مكتبة المؤيد، الرياض، ص 170

(12) الدغشي، أحمد محمد حسين. (2002م). نظرية المعرفة في القرآن

الكريم وتضميناتها التربوية. مرجع سابق. ص 194

المعرفة: الوحي والعقل والحواس" (13).
وخروجاً من الالتباس الذي قد يؤدي إلى عدم
التحديد الواضح المراد بمصطلح المصادر والطرائق
في هذه الدراسة فإن الضرورة الموضوعية تقتضي
المسارعة هنا إلى الإفصاح عن أنه أياً ما كان
المقصود لدى الباحثين الآخرين من إطلاقهم مصطلحي
المصادر والطرائق فإن المراد هنا من إطلاقهم
الأصول التي يستقي منها الباحث المسلم معرفته
والأدوات التي يتعامل بها مع الظواهر المختلفة
فيما يخص الوحي الحس والعقل فحسب.
ثانياً: **خلط بين المصادر والطرائق وبعض عناصر
النظرية:**

نظراً لعدم تحرير المصطلح لبعض الباحثين
لدراستهم فقد وقع بعضهم فيما يُعد خلطاً أدى إلى
إلباس بين المصادر والميادين مثلاً: كالقول بأن
الأنفس والآفاق هي مصادر المعرفة.

ومنهم من يعزو إلى طوائف من المسلمين (المعتزلة
والأشاعرة) اعتبارهم العقل ميداناً للمعرفة.
ومن جهة أخرى فإن بعضهم يميل إلى الإجمال في
ذكر مصادر المعرفة، فيجعله واحداً مثلاً في "الله"
سبحانه وتعالى وإنما تم وصف ذلك بأنه ميل إلى
الإجماع لأنهم لا يعنون بذلك الحق، بدليل أن بعضهم
مما في موضع آخر فذكر الوحي، تحت عنوان "أدوات
المعرفة" (14).

مما سبق معنا في ضبط المصطلح عندنا مدرك،
وأدوات إدراك، وفعل الإدراك مع القوة وهذا كله
موجه نحو موضوع مدرك.

والسؤال: ما مصدر المعرفة؟ النشاط الإدراكي
اسم الإدراك أم موضوع الإدراك؟
إذا رجعنا إلى بعض البحوث فإن الفصل في هذا
من الصعوبة بمكان؛ لأن كثيراً من الباحثين لم

(13) حسنه، عمر لبيد. (1414هـ). المشاكلة الثقافية مساهمة في

إعادة البناء. ط1، مكتبة الأسد، بيروت ص35

(14) الكيلاني، ماجد عرسان. (1409هـ). فلسفة التربية الإسلامية،

ط2، مكتبة هادي، مكة المكرمة، ص 132

ينتبهوا إلى هذا التفصيل، كما أن من تنبه إليه منهم تعامل مع العقل بمعانيه على أنه محل قوة وفعل وهيئة، فيطلق على المعلومات الكائنة في النفس "التراكم المعرفي: عقلاً". وعلى عملية استرجاعها والاستنباط منها عقلاً، عملية تحصيلها أو عدمها عقلاً. (15) فالإشكال هو: هل المصدر هو المحصل للمعرفة، أم عملية التحصيل أم المحصل منه؟

خلاصة ما سبق: (مصدر المعرفة) هو الحاوية لحقيقة الأشياء أو ماهيتها أو مثالها، أي هو الأشياء عينها، أي مصدر هو "الموضوع المدرك" فعندنا نفس مدركة وعملية إدراكية وموضوع مدرك، النفس المدركة هي "محل العلم" القلب، والعملية الإدراكية هي "العقل". والإدراك حصول العلم، والموضوع المدرك هو العالم الخارجي، أو ما في الحافظة والذاكرة، مما نقل من العالم الخارجي أصلاً. وتطور ونشأت عنه معارف وصور قد لا يكون لها وجود بالعالم الخارجي.

المطلب الثاني: - تصنيف المصادر:

مصدر المعرفة في النظام المعرفي القرآني مصدران متكاملان متآزران هما: الأول الوحي القرآن الكريم (آيات الله المسطورة) والكون آيات الله المنثورة (الآيات المخلوقة) الأفاق والأنفس.

أولاً: - الوحي:

أ - لغة: ما يقع به الإشارة القائمة مقام العبارة من غير عبارة، فإن العبارة يجوز منها إلى المعنى المقصود بها، ولذا سميت عبارة، بخلاف الإشارة التي هي الوحي فإنها ذات المشار إليه" (16).

والوحي كلمة تدل على معانٍ منها الإشارة والإيماء والكتابة والسرعة والصوت والإلقاء في الروعة والإلهام، وبسرعة وبشدة يبقى أثره في

(15) بليل، عبد الكريم. (2015م). المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، ط1، المعهد العالي لفكر الإسلامي، فيرجنيا، ص 620

(16) الفيروز آبادي، مجد الدين. (د.ت). بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية. ص 118

النفس (17).

والوحي إعلام في خفاء، وله صور عدّة وتتم كلها في خفاء فهو الإشارة السريعة ولتضمنه السرعة قيل أمر وحي للكلام على سبيل الرمز (18).

ب - المعنى الاصطلاحي:

أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده، كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر ويكون على أنواع شتى، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربّه، كما كلم الله موسى تكليماً، ومنها ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً، ولا يجد فيه شكاً، ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيء في تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تجليه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل U، وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل وهو مصطلح عليه بالوحي الجلي. (19).

والوحي كلام الله تعالى المنزّل على نبي من أنبيائه وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الوحي. (20).

ج - المعنى الشرعي:

جاء لفظ الوحي وما تصرف منه في القرآن الكريم في ثمانية وسبعين موضعاً. ونجد بالاستقراء استعمال لفظ الوحي دلالة على الإعداد الخفي السريع والوحي، كاسم معناه الكتاب، ومصدره "وحي" وفعل "أحي" مصدر "إحيا" غير أن للوحي وجوهاً دلالية يتطلبها السياق في القرآن على نحو مخصوص. (21)

وذكر علماء التفسير سبعة أوجه للوحي في القرآن

(17) القطان، مناع. (1995). مباحث في علوم القرآن، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 1995

(18) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين. (2005م). المفردات. تحقيق محمد خليل، ط4، دار المعرفة، بيروت. ص 530

(19) بليل، عبد الكريم. (2015م). المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، مرجع سابق. ص 620

(20) القطان، مناع. (1995). مباحث في علوم القرآن، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 1995

(21) ابن قتيبة، عبد الله بن سالم. (1973م). تأويل مشكل القرآن. مؤسسة الرسالة، بيروت. ص 373

الكريم :

(1) الإرسال: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [سورة النساء: 163].

(2) الإشارة: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [سورة مريم: 11]

(3) الإلهام: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [سورة النمل: 76] ، فهو إيقاع الشيء في القلب ، يطمئن له الصدر ، ويخص به بعض أصفياه. (22)

أما البهائم فهو غريزة تجعلها تحس ما ينفعها وما يضرها، قال الرازي وحي وأوحي، هو الإلهام، المراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر. (23)

(4) الأمر: (يَوْمَئِذٍ تَحْدُثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) [سورة الزلزلة، 4، 5].

(5) القول: الكلام المباشر: (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) [النجم: 10]

(6) الإعلام: بالإلقاء في الردع، وهو خاص بالأنبياء: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ) [سورة الشورى: 51]

(7) الوسوسة: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) [سورة الأنعام: 112].

فمن معاني الوحي العامة أنه الإعلام الخفي السريع، الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفي عنه

(22) الزبيدي، عبد الرحيم (1408هـ) بحث بعنوان: "مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي"، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، مرجع سابق، ص6

(23) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. (1983). التفسير الكبير مفاتيح الغيب. ج10، دار الفكر، بيروت، ص 73

غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل، والإلهام الخواطر مما يلقيه الله في روح الإنسان السليم الفطرة كالوحي إلى أم موسى، ومنه وحي الناس لبعضهم بعضاً، ووحى الشياطين ويسمى بالوسوسة، والرؤيا، والحدس، والإلهام والتحديث والفراسة كلها صور للوحي، تتفاوت حسب وقوعها غير أن البنوة خاصة بالوحي الخاص بأضرابه الثلاثة. فالوحي إذن ما هو إلا صلة بين الرب سبحانه وتعالى ومن يصطفيه من خلقه لتحمل أمانة التبليغ عن الخالق إلى الخلق وهذه الصلة أو تلك العلاقة يصحبها علم ضروري بمصدرها، ويصحبها ظواهر نفسية وبدنية للمصطفى، ويتبعها آثار توجيهية يعلنها المصطفى للناس حوله (24).

وقد عبّر ابن خلدون عن هذا المفهوم بقوله: " استغراق لقاء الملك الروحاني بإدراك الأنبياء المناسب لهم، الخارج من مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية.. كل ذلك في لحظة واحدة، بل في أقرب من لمح البصر" (25).. وأكثر ما استعمل فيه صيغة الفعل ماضياً ومضارعاً في القرآن ووردت كلمة "الوحي" في ستة مواضع كلها في العهد المكي وهذا يدل ويبيّن أثر هذه القضية واعتبارها أساس ما يدور عليه العهد المكي، من صراع في قضايا يتميز بها هذا الدين الجديد.. ومن ثم أن المعرفة طريقاً جديداً غير طريق الحس والعقل. فكان يتحدث عن الوحي وإثباته طريقاً للمعرفة. (26)

د - أهمية الوحي:

- (24) بليل، عبد الكريم. (2015م). المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 662
 (25) ابن خلدون، عبد الرحمن. (1982م). مقدمة ابن خلدون. ط5، دار الرائد العربي، بيروت، ص 15
 (26) الكردي، راجح عبد الحميد. (1413هـ). نظرية المعرفة بين القرآن الكريم والفلسفة، ص6

كما أن الوجود يرد إلى الله فكذلك المعرفة، فمن الله تبتدئ المعارف والعلوم، وإليه تنتهي، فهو الذي خلق وعلم قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 1-5].

في الله قد وهب للبشرية العلم والمعرفة إمّا هبة بلا واسطة كالمعارف الضرورية وإمّا بواسطة كالأنبياء ولذلك وحيه الذي بلغ أنبياءه لهداية البشرية علماً وعملاً، فالوحي الإلهي منة الله المعرفية على خلقه، والمراد به " إعلام من الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام علماً لا يحصل للإنسان بحسه ولا بعقله.

وإذا كانت معارف البشر وعلومهم مفتقرة إلى العلم الإلهي الذي يُعدُّ أصل العلوم، والمعارف فهي أيضاً مقتصرة إلى الوحي الإلهي، باعتباره جزءاً من العلم الإلهي الموهوب، فإن الإنسان عاجز بعقله وحسه عن أن يفي بمتطلبات المعرفة في العلم الاعتقادي الديني، وفي العمل والتشريع الاجتماعي؛ لأنه مقيد بحسه الضيق ومحدودية طاقته العقلية، فهو بحاجة ماسة إلى طريق آخر للمعرفة، ينسجم مع عقله وحسه وسائر نزعاته الفطرية.

فلا ريب في الضرورة المعرفية للوحي الإلهي؛ لأن المعرفة البشرية مقتصرة بحسب طبيعتها إلى أمرين: الأول: أصل معرفي صادق معصوم، يمدّها بالقضايا والمعارف الصحيحة التي تعجز عنها.

الثاني: معيار معرفي، وميزان توزن به آراء البشر ومواقفهم المعرفية فهي بحاجة ملحة إلى حرز معرفي، وهداية ربانية، تحررها من الأغلاط والأوهام المعرفية، التي تعرض لمعارف البشر.

ولا يفي بهذا الاحتياج المعرفي إلا " الوحي الإلهي المعصوم في أخباره وأحكامه، فهو مصدر العلم النافع ومعيار الحق الصادق (27).

(27) الدعجاني، عبد الله بن نافع. (1436هـ). منهج ابن تيمية المعرفي. ط2، تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، ص 9

ويظهر الافتقار المعرفي للوحي الإلهي، في المعرفة الإلهية الغيبية التفصيلية، فالوحي الإلهي وحده هو الذي يملك كشف تلك الحقائق الغيبية التفصيلية، لذلك فإن من أقصى الوحي في ميزان المعرفة، وقع في أوهام وخرفات ميتافيزيقية، تتعلق بالمعرفة الإلهية، كما ما هو في الواقع في رؤية الفلاسفة الإلهيين، ولذلك فإن الأنبياء إنما بعثوا بالبينات والهدى ببيان الأدلة العقلية عن الحقائق الشرعية وهداية الناس بإخبارهم بالغيب، الذي تعجز عقول البشر عن إدراكه بدون إخبار الأنبياء. (28)

هـ - طريقة معرفة الوحي:

من المعلوم أن طريقة الوحي تختلف عن طريق الاتصال الحسي أو المدركات العقلية، وهذا الطريق بحد ذاته في المعرفة يقيني، يتعالى على الحس، والعقل، والمذاهب الروحية الذاتية للإنسان، حتى بعد بلوغه ثمة مرتبة الولاية (29).

أما دور العقل فينتهي عند التسليم بميدان عالم الغيب دون الدخول في كنهه أو حقيقته لأنه لا يقع تحت سلطانه، كما لا يقع تحت سلطان الحس والتجربة أو خروجه عن قوانين إدراك طبيعة عالم الغيب وما هيته؛ لأنها يحكمان بمخالفته للحس والتجربة، أو خروجه عن قوانين العقل الأولية لأن أساس الوحي عرف بمقدمات راجعة إلى الحس والمشاهدة في عالم الشهادة، فأقرها العقل ووثق بها. وكذلك فإن التفكير العقلي هو المؤدي إلى حقيقة الإيمان بالغيب، وهو الذي أوصل الإنسان إلى المعرفة العلمية، بعكس التفكير الخرافي الذي يقدم على الجحود والإنكار لقواعد العقل.

وإذا أيقنا بضعف الحواس والعقل عن إدراك حقيقة النبوة، مما عاد هناك سوى الخبر اليقيني ممثلاً في الوحي، وهذا الوحي نص على يقينية معرفته

(28) المرجع السابق ص 91.

(29) عبد الحميد، محسن (1985م). تجديد الفكر الديني في الإسلام، دار آسيا للطباعة والنشر، ص 77.

في مثل قوله: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [سورة البقرة: 23]

وقوله تعالى: (ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) [سورة البقرة: 176]، وإذا كان الله تعالى مصدر الوحي "القرآن" فإنه سبحانه مصدر المعرفة بالمعنى العام المطلق كذلك: (أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) [سورة البقرة: 77]

ويعلم حتى الجزئيات وجزئياتها: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) [سورة آل عمران: 5] وقوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [الأنعام: 59]

وكل ما عندنا من معرفة فهي نسبية لا تمثل سوى جزء لا يتجزأ من علم الله الواسع المحيط ولا تناولها إلا بمشيئته سبحانه: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [سورة البقرة: 255]

وإذا تقرر ذلك فإن هيمنة الوحي على كل من الحس والعقل فضلاً عن المصادر التبعية الأخرى تجعل طريق النبوة، وحدها. وحيماً يمتلك تلك القوة اليقينية، سواء في وروده أم في بعض دلالاته وبذلك تتحصن عقول الناشئة ومسالكمهم من أي ادعاءات تزعم أن بها صلة بالعالم العلوي عن طريق آخر كالشعوذة أو التنجيم والكهانة والعرافة، إلى آخر ضروب التفكير الخرافي. ويحل محلها التفكير العلمي المعتمد على مصدر النبوة وطريقها وحدها منهجاً مشروعاً. (30)

و - غاية الوحي:

بلوغ الغاية من الخلافة وهي التوحيد لا يكون إلا بمعرفة ما يأتي عن طريق الوحي والنبوة فنجد

(30) الدغشي، أحمد محمد حسين. (2002م). نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية. مرجع سابق نص2.

الغاية من الوحي والنبوة في نصوص كثيرة إما متصلة أو مجملة:

(1) البشارة والندارة قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة سبأ: 28]

(2) إخراج الناس من ظلمات الجهل والغواية والضلال إلى نور الهداية، قال تعالى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [سورة إبراهيم: 1].

(3) الفصل في الخلاف وبيان الأصول والكلبيات التي تقوم عليها البشرية، قال تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [سورة النحل: 64] بوجه عام لبيان العقائد والتشريعات، أي علاقة العباد بربهم، بمعرفة كيف يوحدون أفعال ربهم ويخصونه بها دون غيره إقراراً وعقيدة، وكيف يوحدون أفعالهم نحوه، ويختصونه بالعبادة والطاعة كما يريد، وكيف يتعاملون فيما بينهم ومع غيرهم، وأكثر وضوحاً أن يكون الوحي هو قانونهم دنيوياً وأخروياً.

ثانياً: الكون:

الكون هو عالم الشهادة، أي كل أمر نستطيع أن نتوصل إلى شهوده بالرسائل الحسية فينا حسب العادة، حيث إنه هو الوجود المادي الواقع تحت الإدراك الحسي للإنسان، أو الذي يمكن أن يقع تحته، ومن خصائصه أنه معقول الذات وقابل للوجود الإنساني إذا توفرت أسباب الشهود⁽³¹⁾.

فطبيعة هذا العالم هو الكون المحسوس وخصيسته إمكان تعقله، وأداة البحث فيه هي الحس، وإن كان العقل أداة عامة فيه لكنها تتبع الحواس، باعتبار هذه الحواس منافذ إدراكية للعقل، وفي كل حال لا يمكن أن الاستقلال بأي من الأدوات، فثمة مصدرية

(31) الدسوقي، فاروق. (1987م). الإسلام وعلم التجريبي. ط1، المكتب الإسلامي، بيروت. ص 42.

الوحي وطريقته الذي يعمل على توجيه مسار البحث في ميدان الشهادة.

هذا الكون المشهود به قسمان مصطلح عليهما قرآنيًا بالآفاق والأنفس، إذ هما العالم المشاهد الواقع تحت الإحساس وتصل إليه الحواس، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** [سورة فصلت: 53]

وكذلك نجد أن هناك علاقة جدلية قائمة بين ميداني الآفاق والأنفس من خلال جملة من النصوص القرآنية. قال تعالى: **(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضَلِّينَ عَضُدًا** [سورة الكهف: 51]

وقال تعالى: **(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** [سورة الروم: 8]

وقال تعالى: **(وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ)** [سورة الروم: 22]

إن فحوى تلك الآيات يشير إلى ميدان عالم الشهادة بقسميه الآفاق والأنفس، الآفاق تلك التي تتناول ظواهر الكون ومخلوقاته وطاقته وقوانينه، والأنفس تلك التي تتناول الإنسان بمختلف عناصره ومظاهره وتتجلى مظاهر العلاقة الجدلية بينهما في هذا التلازم المثير إلى الإبداع في الخلق دليل وجود الخالق البديع سبحانه (32).

ففي قوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [سورة فصلت: 53] وقوله تعالى: **(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)** [سورة الأنبياء: 37]

هي الآيات المعجزة التي تطالعنا في صفحة الكون

(32) الدغشي، أحمد محمد حسين. (2002م). نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية. مرجع سابق، ص 157

والحياة والله وعد بأنه سيبين لنا آيات مستقبلية بالنسبة إلى كل من يراها بعد، وهي على نوعين: أولهما: أسرار الآفاق أو العلوم الكونية الطبيعية، وثانيهما: أسرار الإنسان روحاً، وجسداً، فالحق المبين بالآيات الآفاقية والنفسية هو صدق القرآن وما حوى. (33)

وفي تأمل أسماء السور آية لافتة منبهة على نظام معرفي خاص، يجعل الكون وما فيه من آيات مخلوقه مداراً رئيساً لما يليق بالبحث من المسلم خاصة والناس عامة فيعمل الناس الفكر فيه، وعملية التفكير حركية حيث تقتضي التنقل بين المصدر والقوة الإدراكية، لاستنباط العلم، وذاك شرط قيام العمران، والتمكين في الأرض، فأسمائها تدل على أصناف أربعة في النظام المعرفي في القرآن (34).

(1) الظواهر الإنسانية النفسية والاجتماعية: هناك أكثر من ست وثلاثين سورة تدل أسماءها على هذا، مثل: (النساء، الأنفال، التوبة، الحج، الأحزاب، الشورى، المجادلة، الطلاق، التكاثر، المطففين،).

(2) الظواهر الكونية الآفاقية: هنالك أكثر من ثلاثة وعشرين سورة، مثل: (الرعد، النور، الدخان، النجم، القمر، التكوير، الشمس، البروج، الزلزلة، ...).

(3) الأقوام والأمم: هناك أكثر من أربع عشرة سورة، مثل: (يونس، هود، يوسف، نوح، إبراهيم، سبأ، الروم، قريش، ثمود، إسرائيل، والإسراء، ...).

(4) البهائم والحشرات والنبات: وهي حوالي ست سور، مثل: (البقرة، الأنعام، النحل، والتين). والحديث عن ميزان الآفاق والأنفس يقتضي قدراً من البسط التفصيلي لكل منهما ذلك على النحو التالي:

(33) السعدي، داود سليمان (1999م). أسرار الكون في القرآن. ط2، دار الحرف العربي، بيروت0ص

(34) أرشدان، محمود. (1998م). حول النظام المعرفي. مجلة إسلامية المعرفة، عدد (10)، ص11

(أ) الآفاق:

الآفاق آحاده أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض وكذلك آفاق السماء نواصيها وأطرافها⁽³⁵⁾. وفي تفسيرها قولان:

القول الأول: أن المراد الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإظلال والظلمات، وعالم العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة، ولقد أكثر الله منها في القرآن، والله يطلعهم على تلك العجائب زماناً بعد زمان.

والقول الثاني: أنها الفتوحات⁽³⁶⁾، وفي فتح القدير، قال ابن زيد: "في الآفاق آيات السماء، وقال قتادة والضحاك" وقائع الله في الأمم"، وقال عطاء: "في الآفاق" يعني أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق، والنبات والأشجار والجبال، والبحار وغير ذلك⁽³⁷⁾.

إذا تتبعنا الأقوال يمكن جمعها في المعنى اللغوي فالآفاق هي الكون بما فيه من حوادث وما يحوي من مخلوقات سماوية وأرضية وأحداث تاريخية، وكانت الآية بصيغة المستقبل "سيركم" أي إنها ستداول واحدة بعد أخرى ومنزلة تتلو أختها وقوله "في" دلالة على الاطلاع لا يكون على الآفاق، بل ما فيها، أي ما تحوي من عجائب، فليس المراد السياحة البصرية، بل القلبية، وذلك لإقامة الحجة، لا للحصول على المتعة؛ لأن الغاية إثبات صحة الكتاب والرسول وصدقهما⁽³⁸⁾.

ولذلك إن الكون بالنسبة إلى المسلم أشبه "

(35) الدمشقي، أبو حفص علي بن عادل. (1998م). الباب في علوم الكتاب. ط1، تحقيق: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت. ص 101

(36) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. (1983). التفسير الكبير مفاتيح الغيب. ج10، ص 140

(37) الشوكاني، محمد بن علي. (د.ت). فتح القدير بين الرواية والدراسة من علم التفسير. ج3، دار الفكر بيروت، ص 523

(38) بليل، عبد الكريم. (2015م). المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، مرجع سابق ص 639

بكتاب مملوء بالمعارف، وما عليه إلا أن يفتح صفحاته، ويتأمل بما منحه الله إياه من عقل أودعه الله في هذه الصفحات من بدائع صنعه، ودقة نظامه، وأسرار حكمته، وعظيم آياته، وفيما أرساه الله من قوانين وسنن يسير وفقها كل شيء في هذا الكون، وتدل بدقتها على وجود الخالق العليم الكامل الإرادة والقدرة سبحانه جل وعلا.

أ - أهداف آيات الآفاق:

أما الهدف الغائي من وراء ذلك كله فالوصول إلى الحقيقة القرآنية قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [سورة فصلت:53]

ومعرفة آياته: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [سورة النمل:93] ويندرج هذا في إطار الأهداف العامة لنظرية المعرفة في القرآن الكريم.

وأما الأهداف الفرعية فحسبنا هنا الإشارة إلى أن القرآن الكريم إذ يهتم بآيات الآفاق المتعلقة بأعمال قوى العقل، مثلاً: فإنه يدعو الإنسان بوضوح إلى التعلم عن طريق ملاحظته للأشياء، وتجربته العلمية في الحياة وعن طريق التفاعل مع الكون، وما فيه من المخلوقات والأحداث وذلك بمختلف الطرائق الحسية أو العقلية. (39)

كما أنه يعد مثل هذا المنحنى مدخلاً من المداخل الهادفة إلى تأكيد الإيمان وإيقاظه من خلال متابعة متدبرة للموجودات المادية في هذا الكون، وهذا يمثل هدفاً أساسياً من أهداف المعرفة الكونية وفق النظرة القرآنية، بالإضافة إلى الأهداف الجمالية النفعية.

ب - سمة آيات الآفاق:

من أبرز السمات الملاحظة في آيات الآفاق عدم العناية بدخول في تفاصيل أجزاء هذا الكون، ولئن

(39) نجاتي، محمد عثمان (1993م). القرآن وعلم النفس، ط5، دار الشروق، القاهرة. ص 165

بدا أنه اقترب من البحث في التفاصيل والدقائق، فإنه سرعان ما يرجع إلى تقرير التناسق، ودقة النظام، والحكمة في تدبير أجزائه وتكوينها أو وصف المظاهر الخاضعة للحسن، أو الربط بينها وبين أسباب حياة الإنسان وهكذا فإن القرآن الكريم يقول على سبيل المثال: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [سورة القمر: 49] وقوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) [سورة الحجر: 21] وقوله تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [سورة طه: 50]

وقد يصف أو يحلل على سبيل الإشارة فيقول: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَقَيْنَاكُمْ أُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [سورة الحجر: 22]

ويرى بعض الباحثين أن الحكمة من وراء ذلك: إفساح المجال لحركة العقل كي لا تلزم بأمر حسيه عن طريق النص الغيبي، من غير اعتماد على منهج النظر العقلي والحس التجريبي ما دام في مقدوره ذلك⁽⁴⁰⁾.

إذن الكون مصدر لعلاقتنا بربوبية الله، والوحي مصدر لعلاقتنا بألوهية الله، أي أننا نستدل بالكون على وجود الخالق القادر الرب، ونستدل بالوحي على كيفية صحة عبادتنا له، فالكون مصدر علم لتوحيد أفعال الرب، والوحي مصدر علم لتوحيد أفعالنا نحو الإله.

والعلم الحاصل من ميدان الآفاق، هو معلومات ومعارف متناقلة، عبر الألسن أو الكتب أو الصور اصطلاح عليه بالإخبار، ولا تدرك إلا بالسمع والبصر، فاتصال الإنسان بالآفاق لا يكون إلا بالحواس وهي الناقل لما في العالم الخارجي إلى العقل، العالم الداخلي لكل فرد، وما تنقله الحواس أمران:

إحساس وإخبار: فالإحساس هو المعلومات التي

(40) البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج تربوي فريد في القرآن، مكتبة الفارابي، دمشق، ص 36

يباشرها كل فرد بنفسه نحو الأشياء، لإدراك ماهيتها أو حقائقها أو صورها، بعدها تخزن هذه داخل الحافظة، بعد أن تشكل في الذهن بعض القوانين والمبادئ والبيدييات الضرورية والمسلمات⁽⁴¹⁾. وهذه كلها تصبح معايير لكل ما سيرد على الذهن وهذه العملية حاصلة في كل عقل، مع تفاوت في درجة الاستقبال والتلقي والاختناغ والتخزين والاستحضار، ثم يصبح عند العقل مصدران ثانويان بعد ذلك هما: **(1) داخلي:** ويتمثل في التراكم المعرفي بالحافظة من خيرات ومبادئ وبيدييات ومعلومات ومحفوظات يسترجعها بواسطة الذاكرة، كما ينتج أفكار أخرى أو يبادر إلى الفعل، أو يقارب ويميز ويمحص.

(2) خارجي: ويتمثل في التراكم المعرفي بعقول الآخرين وذاك التراكم سيأخذه منهم مباشرة بالتلقين، أو بما كتبوه، والكتاب هنا تعبير عما في العقل من معرفة، فالكتب وجميع المحفوظات الإلكترونية للمعلومات هي "تراكم معرفي" خارج العقل، ناتج عن العقل هذا التراكم المعرفي الخارجي يصطلح عليه بالخبر وهو ما يخرج من عقول الناس، ويعرض من معلومات ومعارف وصور مختلفة، كلاماً أو كتابة أو صوراً. فالحاصل أن المعارف تصل إلى العقل من:

(1) الحسن (القوة) بداية، عند كل إنسان وقت ولادته أو بداية العملية المعرفية يدرك ما نقل.

(2) العقل (القوة) أي المحافظة والذاكرة، بالتذاكر واسترجاع ما فيه من معارف.

(3) الخبرة وهو تنتجه العقول من معلومات، ولا ينتقل إلى العقل إلا بالحس.

فالنتيجة أن الطرق طريقتان ثلاثاً، والمصادر مصدر واحد من عالم الشهادة الأصلي، ومصدر تابع وهو نوعان: داخلي (عقل لكل فرد) وخارجي (عقول كل

(41) بليل، عبد الكريم. (2015م). المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، مرجع سابق، (644)

الأفراد) والنوعان تراكم معرفي عن المصدر الأصلي " الكون" .

ثالثاً: أخطاء الاعتماد على مصدر واحد:

من تجاوز المصدر الأول " الوحي " في المعرفة ، واستغرق استغراقاً كلياً في " المصدر الثاني الكون" أو معارف الطبيعة منقطعة عن الله تعالى ، فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية غيبته عن الله، عوراء قاصرة في مصادرها ، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة وتعد الخالق والغيب كله مجرد ورايات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها ، وإذا كانت هناك قوة غيبية قد مارست خلقاً أو إيجاداً فقد تكون ممارستها بقوة الدفعة الأولى ثم تناسته أو نسيته يستمر الكون بعد ذلك فاعلاً ومنفعلاً بشكل آلي كما ذهب إلى ذلك أرسطو. في القديم ونيوتن وغيره في الحديث، وحين يحلو لبعض هؤلاء المتفلسفين أن يتذكروا البارئ جل شأنه فإنهم قد يتذكرونه بشكل حلولي يزعم أصحابه أن الله تعالى قد حل في قوى الطبيعة ذاتها وذاب فيها يتحول إل جزء حال فيها ينتهوا بعد ذلك إلى "المادية الجدلية" التي أنكرت الخالق تماماً، وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطور المادي المعقد يشعر الإنسان باندماجه الكامل للطبيعة بحسبانها كائناً طبيعياً، وهنا يبدأ الإنسان بالشعور بالغنى والاستغناء عن خالقه جل شأنه؛ لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهي كل شيء وهي وراء كل شيء ، وهو في ظاهر الأمر قادر على قهرها بالعلم، فلا يراها وهي مُسَخَّرَةٌ مقهورة بسنن الله تعالى، بل يراها كوناً مستقلاً عن أي امتداداً غيبياً، وأنذاك لا يشعر بأن الله تعالى قد سخرها له، وأنه الخالق له ولها، بل يرى الإنسان أنه الفاعل المبدع، المتعدد القدرات المسيطر على الطبيعة، المفجر لكل ما فيها .

وفي ذلك انحراف في الرؤية والتصوير خطير فالكون مهياً مُسَخَّرٌ للإنسان ، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعقلية والعلمية

التي تمكنه من تسخير الكون، ليقوم بأمانة الاستخلاف، وحين يغفل الإنسان عن ذكر الرحمن، لا يرى القدرة الإلهية في ذلك كله ظاهرة بهداية الوحي يشده الشعور بالاستغناء، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسلط وقهر وصراع واستعلاء، لا استخلاف، ويفقد بؤصلة الاهتداء، وتفقد عناصر الطبيعة علاقتها الودية بالإنسان، ويفقد الإنسان بدوره شعوره بأنه المخلوق المستخلف المؤتمن على الكون كله وأن كل هذه الأشياء المخلوقة مسخرة لهذا المؤتمن والمستخلف وكلاهما في المخلوقية والعبودية لله تعالى سواء (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصفات: 96]

فإذا فقد هذا التصور فقد يتخذ الوجود في نظره شكل القوى المتصارعة المتنازعة ويتخذ الإنسان الغافل من نفسه وهواه شكل المتأله المسيطر بالعلم على كل شيء فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه، ويتوهم أن له أن يستمد قيمة من ذاته ومن الطبيعة، والدين والإيمان نفسه قد يتحول في إطار شيء يوظفه من شاء وساعة يشاء لتلبية رغبته، أو لأداء خدمة، وهنا يتحقق عليه القول: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى) [سورة العلق: 6-7]

فيقع في الاستبداد والطغيان على أخيه الإنسان، وتحدث كوارث البيئة، ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة، فقارات يعمها الجوع والخراب وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها، والجرائم بكل أنواعها، وتسود المعيشة الضنكة " قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [سورة طه: 124]

أما من أهمل المصدر الثاني الكون والطبيعة المسخرة واقتصر على مصدر واحد هو "الوحي" منقطعاً مبنياً على الوجود، فإنه يؤدي نفوراً من الدنيا واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله على أداء مهام

الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير ويعطل فكرة وينقص من قيمة فعله، بل قد يلقي إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً في شيء؛ لا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانياً ولكل هذه الأفكار منافية تماماً لمنهج القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مصادر المعرفة في المذاهب الفلسفية الوضعية

لقد تاهت البشرية في ركام من التصورات الفلسفية، محاولة تحديد حقيقة المعرفة ومصادرها، والتي تُعدُّ أعلى وظيفة للإنسان في الوجود، وليس هنالك سبب لحيرتها وتيهها، إلا أنها نبعت من تصورات ضيقت طرق ومصادر المعرفة وحصرتها إما في العقل وحده، وإما في الحس وحده، وإما أنها ابتدعت طريقاً ذاتياً لا إلزام فيه ولا حجة كالذوق والوجدان.

وفي هذه الجزئية سنتناول مصدرية المعرفة في المذاهب الوضعية من خلال مذهبان المذهب العقلي والمذهب التجريبي، نظراً لحضورهما في الواقع المعرفي وتأثيرهما في الفكر الفلسفي.

المطلب الأول: - مصدر المعرفة عند المذهب العقلي:

مَرَّ المذهب العقلي بتطورات طويلة قبل أن تتحدد مبادئه، حيث اتسمت المحاولات التي قام بها مفكرو الإغريق الطبيعيين الأوائل (القرن السادس قبل الميلاد) بالتركيز على كشف المادة الأولى (مبحث الوجود) دون أن يهتموا بقدرة العقل على انتباه ذلك (مبحث المعرفة) ذلك يدل دلالة قاطعة على أن قيمة المعرفة لم ترد لهم بخلد. (42)

بدأ المفكرون الفلاسفة في عهد "بارمنيدس" و "هيرا ليطس" في التمييز بين الأمور الحسية والأمور العقلية، وعلى ضوء هذا التمييز يصنفون كل منها طابعه وحدوده.

جاءت بعد ذلك " الفيثاغورثية " الفيلسوف

(42) الأفندي، محمد ثابت. (د.ت). مع الفيلسوف، دار النهضة العربية، بيروت. ص 149

"فيثاغورس" في تقدم العقلانية عندما ذكرت الأشياء الحقيقية هي الأعداد وتعاضم الاتجاه العقلاني بعد ذلك عند " أفلاطون" و" أرسطو" حيث أصبح العقل أداة للمعرفة مزودة بالمقدرة على تحميل الحقيقة المطلقة، وأنه ملكة منفذ له عن عالم الحس، ويتضح دور العقل بهذا التصور في المثل الأفلاطونية وأن انبثاق العقل الخالص عن المحرك الأول عن أرسطو وأتباعه ثم يأتي " ديكارت" وبمجيئه تتحدد معالم المذهب العقلي أكثر، وقد جعل من الفكرة اللبنة الأولى في بناء مذهبه ، فالفكرة هي كل ما يستطيع العقل إدراكه مباشرة، والأفكار الواضحة المتميزة هي ما تؤلف الحقيقة . وجاء الفيلسوف "ليبنتز" ووضح موقفه الفلسفي في عبارة واحدة " أن طريقنا إلى المعرفة هو العقل بما يحتويه من أفكار كامنة فيه بالقوة، والحسن الذي يخرج، عن طريق الإثارة الحسية، تلك الأفكار الكامنة من قوة العقل إلى الفعل. (43)

وبهذا يرى أصحاب المذهب العقلي أن العقل هو المصدر الأول للمعرفة، ويزعمون أنه يمكن الوصول إلى معرفة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي دون الاستناد إلى التجربة البشرية، فأول شيء يجب على الإنسان معرفته هو أنه يمتلك ملكة التفكير وهي الأداة الأساسية في البرهنة والمقياس الذي يميز به بين الأفكار الصحيحة والأفكار الخاطئة، حيث قال أفلاطون صاحب نظرية الاستذكار "العقل هو الضمان الوحيد والضروري لإدراك المعرفة".

أعدل قسمة بين البشر ويرى ليبنتز " إن جميع القضايا الصادقة يمكن معرفتها بواسطة الاستدلال العقلي الخالص" (44).

وذهبوا إلى أن المعرفة العقلية هي المعرفة الحقة التي تتسم بطابع الضرورة والكلية وهتان

(43) قاسم، محمد محمد (1986م). كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء

المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 264

(44) هويدي، يحيى. (1989م). مقدمة في الفلسفة العامة، دار

الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 132

الصفتان الضرورة والكلية تكفيان للدلالة على صدق قضايا المعرفة من حيث إنها قضايا واضحة بذاتها وقبلية، أي سابقة على كل تجربة، بمعنى أنها فطرية لا تحدث اكتساباً، أي لا تستمد من التجربة الحسية، واتفق أصحاب المذهب على القول بأن للعقل مبادئ وقوة فطرية في الناس جميعاً. وهي مصدر المعرفة البشرية التي تقوم عليها كل مجالاتها في الطبيعة والرياضة والميتافيزيقيا، وإنما هي تمثل جوهر العقل التي إذا فقدتها فقد قيمته وتمثل المبادئ العقلية بما يلي:

- (1) مبدأ الهدية: الذي يقتضي بأن ما هو وما ليس هو ليس هو، أي أن الشيء لا يكون غيره.
- (2) مبدأ عدم التناقض: الذي يقضي بأن الشيء الواحد لا يمكن أن يكون وألا يكون معاً. وهذا المبدأ أهم المبادئ العقلية، وجوهر الفكر المنطقي، وهو لازم لكل معرفة بحيث لا يمكن التيقن من صحة معرفة بدون الارتكان إليه.
- (3) مبدأ نفي الثالث (الوسط المستبعد): الذي يقضي بأن كل شيء هو إما أ أو أ ولا وسط بينهما، فالعدد زوج أو فرد، ولا يمكن أن يكون إلا أحدهما.

والمبدأ الثاني والثالث مرتبطان، لأن مقتضى الثاني أن النقيضين لا يكونان معاً، ومقتضى الثالث أنهما لا يرتفعان معاً، بل لابد أن يكون أحدهما

- (4) مبدأ السبب الكافي، وهو يقتضي بأن لكل شيء سبباً يتوقف عليه. (45)

وبهذا يمكن أن نقول إن مصدرية العقل للمعرفة عند المذهب العقلي تتمثل في صورتين:

الأولى: هي التي تستغني بالعقل في تحصيل المعرفة عن أن شيء غيره من خلال تعقل النفس لعالم المثل، عند أفلاطون، وأيضاً تمثلت بالمنطق الصوري عند ديكارت بمقولته المشهورة " أنا أفكر، إذن

(45) صليبا، جميل (1982م). المعجم الفلسفي، دار الكتاب، اللبناني، بيروت، ص 316

أنا موجود".

الثانية: تجعل لأصحابها للحس أثراً في المعرفة من حيث يقدم المادة المتمثلة في المدركات الحسية التي تقدم عليها المعرفة من خلال مبادئ العقل التي لها الفاعلية الكبرى في المعرفة، إذ بدونها لا يستفيد الإنسان من مصادر المعرفة الأخرى حتى ولو كانت سليمة. (كرم، 2012، 134).

مما سبق يتضح لنا أن المذهب العقلي بأن العلم بالأشياء التي تتجه إليها النفس في مجال لا يتم إلا العقل نجد أنهم بالغوا كثيراً في تضخيم دور الذات في المعرفة، وهي عندهم كل شيء وهي مكتفية بذاتها تماماً، بحيث يرد كل موجود إليها وحدها، مما أوقعهم في وهم مثالي أحالوا بمقتضاه كل المعرفة إليها، فلم يروا في المعرفة سوى نشاط الذات وفعاليتها الإيجابيين أفكارها ومفاهيمها التي تنبع منها وحدها.

حتى تصورهم لهذه الذات لم يخل من غموض ينتج عن منهجهم الذي فضلوا بموجبه الذات عن موضوعها فديكارت مثلاً حينما عزل الفكر عن موضوعاته لم يتنبه إلى أن "الأنا أفكر" لوحدها ليس لها معنى، وإنما الأصح يقول "أنا أفكر بشيء".

ونجد أيضاً أن المعرفة عند العقلانيين هي تحليل لمفاهيمنا وأفكارنا الفطرية بحيث يظهر صراحة ما كان موجوداً بشكل ضمني فهذا يعني أن الذات تكون حاصلة سلفاً ودفعه واحدة على معرفة تامة بالعالم وهذا مناقض لعملية تطور وأغناء هذه المعرفة الذي لا ينقطع كماً وكيفياً، إذن كيف تكون معرفة مكتملة وهي معرفة ذات محدودة.

وقوع نظرية المعرفة في المذهب العقلي في هذه الصعوبات كان نتيجة للمنهج الاستدلالي الذي طبق في مجال غير مجاله، وللنظرة الميتافيزيقية عن المعرفة بشكل عام كما هو نتيجة للنظرة الأحادية الجانب للرياضيات وللمعرفة بشكل عام، والتي أدت إلى مغالاتهم في الاعتماد على العقل كمصدر للمعرفة في الوقت نفسه.

المطلب الثاني: - مصدر المعرفة عند المذهب التجريبي:

يؤرخ البعض لظهور المذهب التجريبي بالسفسطائيين في تأكيدهم على أن المعرفة جميعها آتية عن طريق الحواس، وهي عند (س) من الناس غيرها عند (ص)، ومن ثم فإن الحقيقة نسبية ما دام الإنسان الفرد هو مقياس كل شيء⁽⁴⁶⁾.

وبعض الكتابات العربية تُؤرخ ظهور المذهب التجريبي بالأبيقوريين الذين أدركوا أن المدركات الحسية أشياء منبثقة من جسيمات دقيقة ترسلها الأجسام إلى العقل، ومن ثم فالإحساس هو مصدر جميع معارفنا، وأن العمليات المعادلة للأفكار العامة التي تؤلف جميع العلوم لا تتحقق إلا بفضل الانطباعات التي تتركها الأحاسيس في النفس⁽⁴⁷⁾.

أما جون لوك (1632-1704) صاحب القول الشهير: "العقل لوحة بيضاء لم يكتب عليها شيء"، فقد ظهر المذهب التجريبي لديه مكملاً عندما أنكر بقوله السابق الأفكار الديكارتية كمصدر للمعرفة.

ثم يأتي "ديفيد هيوم" (1711-1776) ويُعدُّ تجريبياً بمعنى الكلمة، بينما لا يميزه البعض الآخر عن جون لوك، وتوجه الاتجاه التجريبي إلى الفلاسفة المعاصرين وهو "ارنست ماخ" (1836-1916) أحد أعضاء جماعة فينا⁽⁴⁸⁾.

والمذهب التجريبي، بشكل خاص، كان له ارتباط وثيق بالعلوم الطبيعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبمنهج هذه العلوم التجريبية ونظرتها الميكانيكية للعالم، فقد أثرت النزعات التجريبية والميكانيكية للعلوم الطبيعية والتي بدأت في انكلترا على يد "جلبرت" و "هارفي" وتهيأ لها المناخ الملائم على يد "لوك" و "بويل" و"نيوتن" أثرت تأثيراً قوياً ومباشراً على تشكيل

(46) غلاب، محمد. (د.ت). المعرفة عند مفكر المسلمين الدار المصرية لتأليف والترجمة، القاهرة ن ص 73

(47) قاسم، محمد محمد. (1986م). كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 265

(48) المرجع السابق، ص 297

المذهب التجريبي. (49)

وفي العصر الحديث تزعم الفلسفة التجريبية الحديثة ثلة من الفلاسفة مثال "فرانسيس بيكون" و"جون لوك" و"ديفيد هيوم" و"جون سيتوارث ميل" و"كندياك" وغيرهم، وهؤلاء الفلاسفة وإن اختلفوا في تفاصيل فلسفاتهم وفي اتجاهات تحليلاتهم الفلسفية، إلا أنهم اتفقوا على أصل فلسفي معرفي ينتظم أفكارهم الفلسفية في تسعة واحد ألا هو قصر المعرفة البشرية على الظواهر الحسية القابلة للتجربة". (50).

ويؤكد المذهب التجريبي بأنه تعاليم في نظرية المعرفة تذهب إلى أن التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة، وأن كل معرفة تقوم على أساس التجربة ويتم بلوغها عن طريقها، كما تنكر وجود مبادئ عقلية سابقة على التجربة كالمبادئ والأفكار الفطرية. (51)

ويؤكد هذا ما جاء به "جون لوك" فقد انبرى لوضع النظرية التجريبية في بحث متكامل، فئات ذلك في كتابه (دراسة في العقل البشري).

يبدأ "لوك" فلسفته بمهاجمة المذهب العقلي عن طريق هدم المبادئ الفطرية التي يقول العقليون باستقلالها عن التجربة ووجودها في العقل قبل ممارسة الإنسان رأى تجربة خارجية مثل مبدأ عدم التناقض ويرى أن هذه الأفكار ليست فطرية وأن العقليين واهمون حين قالوا بذلك، معللاً ذلك بأنها لا توجد عند كل الناس كالطفل المجنون، أو يختلفون في صورتها مما يدل على أنها مكتسبة. (52).

وعلى هذا فالعقل صفحة بيضاء والتجربة هي التي

(49) حمد، إنصاف. (2006م). المعرفة والتجربة، دراسة في نظرية المعرفة عن ديفيد هيوم، وزارة الثقافة السورية، دمشق. ص 81

(50) الدعجاني، عبد الله بن نافع. (1436هـ). منهج ابن تيمية المعرفي. مرجع سابق، ص 181

(51) صليب، جميل (1982م). المعجم الفلسفي مرجع سابق، ص 245

(52) الزبيدي، عبد الرحمن زيد. (1992م). مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي دراسة نقدية في ضوء الإسلام، مكتبة المؤيد، الرياض، ص 450

تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً.
ويوضح التجربة بتقسيمها إلى نوعين:
(1) تجربة ظاهرة على الأشياء الخارجية.
(2) تجربة باطنة تقع على أحوال الإنسان النفسية.
ويفسر "لوك" حدود المعرفة على التجربة بتقسيم المعاني إلى قسمين:

(1) معاني بسيطة مكتسبة بالتجربة.
(2) ومعاني مركبة يرجع إلى التفكير. (53).
أما الفيلسوف "ديفيد هيوم" فيرى أن الأفكار ليست إلا صوراً باهتة للانطباعات الحسية القادمة من الحواس، ومن ثم فهو يجرّد العقل من كل فاعلية، وأن ما ينشأ في العقل من انفعالات وإدراكات قوية بارزة فهو من الحواس الخارجية، بحيث تحدث صور لهذه الانفعالات، وتنشأ علاقات فيما بينها وبين المعاني بفضل قوانين تداعي المعاني أو التشابه والتقارب في الزمان والمكان والعلية.

وهذه القوانين ليست أولية أو غريزية في العقل وإنما هي تكرار للتجربة كما أنها ليست قائمة في الخارج (54).

ونجد أيضاً الفلاسفة التجريبيين لهم موقفاً صلباً من القياس لأنه مبني على المعنى المجرد الكلي ولأنه يشهد بوجود العقل وفعالته في المعرفة وهم ينكرون هذا الدور للعقل، ويعدون الحواس صاحبة المقام الأوحد في المعرفة ومن ثم فإن الاستدلال عندهم ليس الانتقال من معنى عقلي إلى معنى عقلي وإنما هو الانفصال من محسوس إلى محسوس محكوماً بقانون التداعي ومن ثم فإنهم يفضلون الاستقراء الذي هو الانتقال محسوس إلى محسوس أو من جزئي إلى جزئي، والاستقراء قائم عندهم على مجرد التوقع الأول أو مجرد عادة يولدها التكرار ذلك أن المستقبل شبيه بالماضي (55)

(53) المرجع السابق، ص 451

(54) كرم، يوسف. (2012م). تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص 185

(55) الكردي، راجح عبد الحميد. (1413هـ). نظرية المعرفة بين القرآن الكريم والفلسفة، 583

وبهذا القول نجد اتساع نطاق هذا المذهب فلم يعد مقتصرًا على نظرية المعرفة، بل تغلغل في كل مجالات التفكير متمثلاً في فلسفات لها نظرتها الميتافيزيقية، والطبيعية، إضافة إلى تبنيها النظرية التجريبية في المعرفة ومحاولة جعل تلك المجالات متسقة مع النظرة التجريبية أو قائمة عليها ومن أشهرها الفلسفة الوضعية، والفلسفة الماركسية.

فالماركسية تتفق مع الوضعية في إقامة المعرفة على التجربة والخبرات الحسية، وفي رفض أية مصادر أخرى للمعرفة تتجاوز التجربة وفي الغاء أي فلسفة تقول بوجود ما لا يخضع للتجربة. ولكنها تركز بالإضافة إلى استعانتها بالعلم الطبيعي في بناء فلسفتها على الظروف الاقتصادية، والبيئة المادية للإنسان التي تكون عند الماركسية الإطار الذي يزاول الإنسان نشاطه في نطاقه، فالمعرفة منبثقة من حركة الإنسان، في هذا الإطار لا يمكن أن تنفصل عنها وبهذا وقفوا في وجه المذهب العقلي " إن ماركس وإنجلز لم يوجها ضربة قتالة لجميع أشكال المثالية واللاإرادية إلا عندما ربطا نظرية المعرفة بالممارسة العملية بصفاتها إنتاجاً اجتماعياً وعملاً ثورياً" (56).

والقاعدة التي تنطلق منها الماركسية في وضع نظرية المعرفة، فلسفتها في الوجود التي تقرر أن المادة هي الموجود الأزلي الأول الذي تنبثق منه الموجودات الأخرى كالفكر.

نتيجة مما سبق ذكره نجد أن العلم المعاصر يؤمن بأن الوجود أوسع من الدائرة التي ينالها الحس الحس مجرداً أو مجهزاً بالوسائل، فقد أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد لمعرفة الحقائق، بل أقروا بأن هنالك طرقاً سوى التجربة يمكنها إيصال الإنسان إلى المعرفة.

(56) جارودي، روجيه، ترجمة إبراهيم فربط (د.ت). النظرية المادية في المعرفة، دار دمشق للطباعة، دمشق، ص 51

وقد انتهى "براتداند رسل" بعد أن استعان بالفيزياء وعلم الأحياء وعلم النفس والمنطق الرياضي إلى: (الجزم بأن هناك طرقاً للاستنباط أقرب إلى الحق ويجب قبولها، رغم أنه لا يمكن إثباتها بالتجربة).

فالعلوم اليوم كلها توسعت أبانت عن ضيق الأفق الذي تنظر منه الفلسفة التجريبية المعاصرة ماركسية ووضعية.

فأنى لها تلك الدعوى باستنادها إلى العلوم الطبيعية، إن هذا العلم كلما زاد اتساعاً وعمقاً متجرداً من الفلسفات المنحرفة يهدي الإنسان إلى الموقف الفطري الصحيح موقف الإسلام من هذه القضايا بأن الوجود ينقسم إلى قسمين: -

عالمي: الغيب والشهادة وأن المعرفة ليست محصورة في مصدريتها بالتجربة، بل هناك مصادر أخرى غيرها تمد الإنسان بالمعارف.

خاتمة الدراسة

وفي ختام هذه الدراسة في مصدرية المعرفة في التصور الإسلامي والمذاهب الفلسفية الوضعية، حاول الباحث في بداية الدراسة أن يقوم بتحرير مصطلح "مصدر" نظراً لخلط بعض الباحثين أدى إلى الالتباس

بين المصادر والميادين وطرق ووسائل المعرفة، وطرح رؤية المذاهب الفلسفية الوجودية حول مصادر المعرفة، وبعدها توصل الدارس إلى جملة من النتائج.

نتائج الدراسة:

كانت نتائج الدراسة على النحو التالي:

(1) إشكالية الوقوع في خلط المصادر والميادين وطرائق المعرفة عند كثير من العلماء والمفكرين.

(2) التصور الإسلامي لمصدر المعرفة هو: -
أ - الوحي (القرآن الكريم) كتاب الله المسطور.
ب - الكون (كتاب الله المنثور آيات الآفاق والأنفس).

(3) مصدرية المعرفة عند المذهب الفلسفي العقلي:

أ - العقل هو المصدر الأول والأساس للمعرفة.
ب - المعرفة العقلية تتم بطابع الضرورة والكلية.

ج - للعقل مبادئ فطرية وهي في الناس جميعاً تمثل جوهر العقل إذا فقدتها فقد قيمته وهي مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ نفي الثالث ومبدأ السبب المكافئ.

(4) مصدر المعرفة عند المذهب الفلسفي التجريبي الحسي:

أ - التجربة الحسية فهم قصرها المعرفة البشرية على الظواهر الحسية القابلة للتجربة.

ب - أنكروا وجود مبادئ فطرية عقلية سابقة على

التجربة كالمبادئ والأفكار الفطرية عند المذنب العقلي.

ج - العقل عندهم صفحة بيضاء والتجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً.

توصيات الدراسة:

(1) الاهتمام بإنشاء مشروع معرفي يتم فيه طرح نظرية المعرفة في شتى مجالاتها.

(2) الحاجة الماسة للتأصيل الإسلامي لمصادر المعرفة وكيفية تطبيقها في واقعنا المعاصر.

(3) عمل بعض البرامج التعليمية والتربوية لمناقشة قضية المعرفة ومصادرها وفق دراسة مقارنة.

(4) الاتصال بالقائمين على مناهج التعليم وحثهم على طرح ما يميز التصور الإسلامي عن المذاهب الفلسفية الأخرى في قضية نظرية المعرفة ومصادرها.